

# محمد صبري

## السربوني ..

## في مرآة

## الظماوي

بقلم: زينب الحسال  
مصر



يقدم الظماوي - من البداية - الوجه المشرق للسربوني، حيث خط الكاتب طريقاً واضحاً سار فيه باقتدار. إنه السربوني صاحب الثقافتين، وكيف نضجت هذه المعرفة وتمكنت من إبداعاته وكتاباته النقدية بالإضافة إلى تفوق السربوني على أترابه في اتخاذه للاتجاه الواقعي في الوقت الذي كانت فيه الرومانسية اتجاهاً سائداً في الإبداع والنقد.

### السربوني ناقد انطباعي:

السربوني ناقد انطباعي حقيقة يؤكد عليها الكاتب، وهذا ما جعل مهمة الظماوي شاقة « فإنك تجد صعوبة في تصنيف خطراتهم الذوقية ونظراتهم النقدية، وقد اجتهدت على قدر استطاعتي - في ترتيب أفكار السربوني وإبراز آرائه».

**ملهد** صبري « الكتاب الثاني للباحث أحمد حسين الظماوي عن المبدع والناقد والمؤرخ والباحث دكتور محمد صبري السربوني.

حمل الظماوي على عاتقه تعريف القارئ المصري والعربي بأحد أعلام الفكر والنقد في العصر الحديث، وعزم على أن يرد له بعض حقه الذي أغمط كثيراً.

مع أول صفحة من الكتاب يضع الكاتب السربوني في دائرة ضوئية مبهرة، تحدد مكانته العلمية والأدبية بين جيل الرواد والتنوير والتكوين.. فهو كغيره من قمم الأدب آنذاك يجمع بين الثقافتين العربية الإسلامية والغربية، وبحكم دراسته جمع بين الكتابة في التاريخ والأدب.

على معرفة مذهلة بقراءة اللوحات والرسوم. وضع الطماوي يده على أسلوب السربوني الذي حدده في نقده المليء بالصراحة والوضوح واختياره لشعر توافر فيه الوصف والتصوير، وانعكس ذلك على انتقائه لشعراء ربطتهم بيئة فنية واحدة فكان «امرؤ القيس والأحيمر السعدي، وابن المدينة وذو الرمة، وهو في انتقائه كان دليلاً الأول ذوقه وما يساير طبعه.. وهذا لا يتنافى أبداً مع ما انتهجه من تفحص النص والنفاذ إلى أعماقه واستكناه مغاليقه والوقوف على طرائق التعبير فيه عن الحقائق والواقع.

ومما سبق يتضح لنا أن السربوني برع في استخدام التحليل وإيجاد العلاقات بين الجزئيات، والاستعانة سواء أكانت فنية أم تاريخية أم نفسية طالما أنها تعطي استنارة وتجلي غموضاً.

وقد أفاد السربوني من المذاهب النقدية ومنها المذهب البنيوي كأداة من أدواته النقدية المتعددة بالإضافة إلى الاستقصاء، وعلى سبيل المثال يستقصي تشبيب ذي الرمة بالرمال، ويستقصي كلمة من شعر إسماعيل صبري، حيث يرد النبع الأول الذي وردت فيه.

ولم يقتصر السربوني على التحليل والاستقصاء بل نجده يوسع دائرة أدوات البحث فيستخدم الموازنة.

ويرى المؤلف أن الموازنة عند السربوني أتت ضمن عناصر العملية النقدية، فتتكرر في جل أعماله بما يشي بمعرفته بالأدب العربي، وإحاطته شبه التامة بالأدب الأوروبية، فهو يستدعي النصوص الأجنبية. ويرى الطماوي أن السربوني كان في بعض موازناته يفتقد

حرص المؤلف على تقديم ترجمة للدكتور السربوني، وركز على أثر المكان ودوره في التكوين الروحي والنفسي للسربوني، وانعكس ذلك على إبداعه وفكره. ثم تناول أعماله الإبداعية التي أفرد لها مكاناً كبيراً في كتابه الأول «صبري السربوني».

وتحت عنوان: «ثقافته النقدية ومعالم أسلوبه النقدي» يركز الكاتب على ملامح ثقافة العصر ورجاله الذين خالطهم. وكان وثيق الصلة بهم، وظهر تأثيرهم على إبداعه، ومنهم حافظ إبراهيم، وإمام العبد، وصادق عنبر، ومحمد البابلي. وكان للقائه بالمنفلوطي، وقراءة كتاب «الوسيلة الأدبية» للمرصفي وتعرفه على نماذج شعرية لفحول الشعراء مثل امرئ القيس، وذي الرمة والبحثري دور في تقديم دراسات مهمة عنهم فيما بعد.

أما عن ثقافته العربية الإسلامية فهي تظهر واضحة جلية في تناولاته النقدية، لابن رشيق والباقلاني والأمدي والقالبي، وهو يتحاور مع آرائهم النقدية واقفاً عند نقاط الإجادة وموضحة لنقاط الاختلاف، وقد يرمي البعض منهم بالتقصير في التدقيق.

ويقدم الطماوي نتفاً ولحاحاً من آرائه النقدية التي تضمها سلسلة «الشوامخ» ولعل اقتصاد الطماوي في تقديم هذه اللحاحات يرجع إلى المنهجية الصارمة التي التزم بها.

### ثقافته الواسعة والمتنوعة:

وكم أدهشني الحديث عن ثقافته الأوروبية الواسعة والمتنوعة التي مكنته من الحديث عن هوميروس وجيته ومونتيني وشيلي وبيرون والفرد دي موسيه ودي فيني وشيلر. ولم تكن هذه المعرفة للاستعراض لكنها وظفت بحيث أعيد اكتشافها وإيجاد علاقات قرابة بينها وبين أدبنا العربي، وكان هدفه من ذلك إظهار وحدة المشاعر الإنسانية.

لقد عشق «السربوني» الجمال والفن في مختلف صورته، ويذكر الكاتب أن الرجل كان يحتفظ في مكتبته بموسوعات فنية، بالإضافة إلى لوحات فنية أصلية لكبار الفنانين العالميين أمثال رمبرانت وفرمير وروبنز، وكان

التفصيل والتأني، وإن كان هدفه الأساسي منها هو التقريب بين الآداب والفنون. وتحت عنوان: الواقعية في الشعر.. يقدم لنا الطماوي فكر السربوني ومزاجه النقدي.

فطن السربوني - دون غيره من أبناء جيله - إلى أن الأدب العربي منذ نشأته إلى اليوم كان يتنازعه عاملان.. عامل الحقيقة وعامل الخيال. وواقع الأمر أن هناك شعرا عني بتسجيل مظاهر الحياة ومفردات البيئة من تحديد أماكن وذكر منازل ووصف طرقات وتعيين مواقع عيون الماء، ولم يكتف السربوني بذلك، بل تعداه إلى

أعماق الواقعية الاجتماعية فتنبه إلى العلاقات الإنسانية، وعلاقة الإنسان بمفردات الحياة اليومية. ومن هذه الموازنات، موازنة بين رواية «هرمان ودورتيه» لجوته وشعر امرئ القيس، فالشاعر استمد عناصر شعره من حقائق الحياة وجزئياتها المتناثرة. وهو في موازناته لا يغفل المجتمع وعلاقته بالفرد. وإذا كان السربوني قد ركز على الواقع والحقائق فإنه لم ينس دور الخيال. والخيال عنده هو الذي يرتكز على الحقيقة، ولا يتجاوزها إلى التأنق والغلو، ويستخرج لنا الباحث من كتب محمد صبري السربوني، أحد اتجاهاته النقدية وهو التمثيل والتصوير فقد أفسح لهما مكانا بارزا في سلسلة «الشوامخ» عرف التمثيل والتصوير، وتبنى هذا الاتجاه ليفرق بين الشاعر والناظم فإذا اجتمعت لشاعر ملكة التمثيل وملكة البيان

كان شعره شعرا لا كلاماً موزوناً. والتمثيل الذي حفل به السربوني هو الذي يصدر عن شاعر ذي طبيعة خصبة، وهو ليس تكراراً أو مجرد محاكاة تامة للواقع، وإنما هو إبداع وصياغة جديدة وإيضاح صور غامضة وكشف عن أعماق خافية، فالتمثيل تفسير لحقائق الحياة دون خروج حاد عن نطاقها.

### ناقد انطباعي أخذ بالمنهج التجريبي؛

وتمشيا مع منهج الطماوي في تأليف كتابه يستخلص آراء وأفكار السربوني عن التصوير، فيرى أنه نوع من

التذكير، وذكر التفاصيل والجزئيات، وهو يشحذ قوة الذاكرة ويقوي الملاحظة وينبه المدارك، وكان لهذا الاتجاه أثره الواضح في نتاج السربوني النقدي، فقد وجد في الشعر الجاهلي نموذجاً لتطبيق مفهومه، ثمة تصوير الهيئته والحالة، وتصوير المركب والبسيط، وتصوير الحركة الدرامية، وهو في تناوله هذه النماذج يعقد موازنة بين الشعر الجاهلي وآيات القرآن الكريم، ونماذج من الشعر الغربي، ويستخلص نتيجة هذه

الدراسة . بأن الشعر الإفرنجي يمتاز بصفة عامة بوصف الحالة، والغربي بوصف الهيئته، وإن كان وصف الهيئته يشتمل على وصف الحالة ضمناً. فالسربوني يقوم بعملية تحليل وموازنة، ثم إعادة ترتيب وتركيب جديد، وقد يبدأ من مسلمة راسخة في الأذهان، ثم يقوم بتنفيذها وإثبات صحتها أو العكس، وبرغم أنه ناقد انطباعي إلا أننا نراه قد أخذ بالمنهج التجريبي كما هو الحال في العلوم البحتة، يستند في ذلك إلى المنهج الواقعي والأسلوب البنيوي وتتسع الأرضية النقدية التي ينطلق منها، وتزداد أدواته وتكتيكه النقدي ليتجاوز حدود الشعر والنثر حتى يقف على الوشائج القوية بينها وبين الفن بمختلف أشكاله من لوحات فنية وأشكال محفورة أو منقوشة، بالإضافة إلى متابعته الدؤوب للحركات والاتجاهات الفنية الحديثة.



إسماعيل صبري



العقاد

### معركة السربوني والعقاد؛

وينتهي أحمد حسين الطماوي هذا الجزء بذكر لمحة عن المعركة التي دارت في عام ١٩٦١م بين السربوني والعقاد والناقد التشكيلي محمد صدقي الجباخنجي وأحمد الصاوي محمد، وكان الخلاف حول مدى تأثير قواعد الجمال على المبدع، فكان كل من العقاد والجباخنجي يشدد على القواعد وأثرها في تقريب الفنون، وحاولا إظهار عدم إلمام السربوني

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع

هيهات قد ذهب المتبوع والتبع

إنها - في رأيه - لم تأت بجديد في المعنى وإنما هي تصوير حالات نفسية ووجدان وعواطف. وابتكار الشاعر يكون في قوة تمثيله وتصويره وأدائه. وقد عني بالترجمة الفنية، وأفرد لها فصلاً في كتاباته عن ذي الرمة والبحثري، يقول: «الشعر الحي مجموعة صور وأحاسيس متنوعة الألوان والأنغام تبدو عبقرية الشاعر الفنان في محيطها وملامحها» ليست الشخصية بحال من الأحوال صورة مادية فوتوغرافية تبرز في القصيدة، ولكنها مجرد ملامح وخطوط روحانية تدلنا على شخصية الشاعر التي تزداد مع مرور الزمن قوة وتوهجاً.

ويأخذ الكاتب على السربوني أنه لم يتصد لكل فنون الشعر التي أجاد فيها الشاعر العربي الجاهلي كالفخر والهجاء والمديح.. كاحتفائه بالشعر التصويري.

لقد قدم لنا الطماوي آراء السربوني ومنهجه.. ولأن الرجل محب للسربوني الأديب والمؤرخ والفنان، وقبل ذلك الإنسان الذي تعرف عليه ودامت صداقتهما اثني عشر عاماً، فإننا نرى هذه الحميمية

في الكتابة. إنه يريد أن يكتب كل شيء عن الرجل الذي لا يعرفه الكثير.. ظلّم ولم ينل حقه، ولم تعرف كتاباته بين القراء. وعلى مدى تسعين صفحة تقريباً يقدم لنا الطماوي نماذج من كتابات د. محمد صبري السربوني، ومنها دراسات عن الأدب الحديث مبينا فضل الرجل وريادته في الكتابة عن شعر البارودي بعد ما وقع على نصين مختلفين لقصائد وأبيات للبارودي. وكيف أنه اتخذ نموذجاً لكل من جاء بعده من الدارسين لشعر البارودي بأنه عني بدقة التعبير عن المعاني بتراكيب وألفاظ وأوزان تجد لها نغماً خالصاً يحكي تلك المعاني ويدل عليها». وقد سبق أيضاً د. مندور في الكتابة عن إسماعيل صبري، واعتمد في كتاباته على قصائد إسماعيل صبري المنشورة أو ما نسخته من الشاعر نفسه.

بقواعد الجمال ونظريات الفن، أما رأي السربوني فهو أن الجمال كالشعر لمح تكفي إشارته، وليس كل عليم بقواعده يعرفه، ويذهب إلى أن القواعد الشكلية لا تفسر الفن أو تفقهه. وهذا الرأي يتطابق تماماً مع كونه ناقداً انطباعياً يعتمد أساساً في فهم العمل الفني عن طريق التذوق أولاً.. ويؤكد الباحث على اهتمام السربوني بالشعر التصويري وخاصة ما جاء في الشعر الجاهلي فتتعرف على العناصر التي حددها السربوني وراء قوة التصوير في الشعر الجاهلي، وهي كالتالي: اللغة العربية كلفة قادرة على تصوير الإنسان البدوي وميله الفطري إلى تصوير البيئة المحيطة به، ثم تجارب البدوي واتساعها في البيئة، فمثلاً في مجال التصوير الشعري للحيوان، يدعونا السربوني لكي



محمود سامي البارودي

نصل إلى مدى تفوق شعرائنا الجاهليين في وصفهم للحيوان أن ندرس الحيوان ليس في هيئته ومزاجه بل علينا تعدي ذلك إلى دراسة الناحية الفنية البحتة، فهي وحدها تساعد على الكشف عن كنوز الشعر القديم وتذوقه، فالأعرابي كان في تصويره لا يترك دقيقة ولا جليلة من هيئة الجمل وأعضائه أو حياته ومعاشه وصحرائه وأسفاره وصفاته،

لأنه كان يحب الجمل، وكان يحب التصوير والتفنن بما يحب - وكما قلت - كان للشعر الجاهلي نصيب الأسد في إبداع السربوني النقدي، ويتيح لنا التعرف على خصائص الشعر الجاهلي، فالشعر الجاهلي شعر غنائي، وربط بين غنائية الشعر العربي والروح الفردية، وكان نتاج ذلك أبيات شعرية حرة مستقلة متعددة الموضوعات، وكان لا بد لآراء السربوني في الشعر الجاهلي أن تصطدم بمفاهيم النقاد القدامى والمحدثين مثل الجمحي وابن قتيبة وأبي هلال العسكري وابن الأنباري والرافعي وإسماعيل أدهم وخليل مطران وطه حسين، وهو في معارضته لهم يقدم نموذجاً جديداً في النقد حيث يبدأ بتحديد مفهوم الشعر، إنه ليس مجرد معانٍ ولكنه قبل كل شيء شعور وتعبير، ثم يقدم تطبيقاً لذلك قصيدة البارودي التي مطلعها:

دفاعاً عن شاعرية شوقي. ولم تقتصر جهود السربوني في البحث عن الإبداعات المجهولة لشوقي، بل نجده يجمع أعمال خليل مطران النثرية، ويخرج لنا بأكثر من أربعين نصاً نثرياً ضمها في كتابه « خليل مطران.. أروع ما كتب ». أكد فيه نظرته النقدية القائمة على أن التصوير هو الطابع الفني المشترك في نثر مطران وشعره.

وناقش كلاً من مصطفى صادق الرافعي وعبدالكريم جرمانوس وإسماعيل أدهم وأحمد حسن الزيات في مقولات حول الأدب العربي حيث نعتوه بالذاتية والسكون والاهتمام بالجزئيات، وعدم تصوير الهيئة والحالة، وأثبت السربوني عكس ذلك وضرب أمثلة كثيرة على عبقرية العرب في مجال تصوير الهيئة والحالة ووجود الحركة في شعرهم.

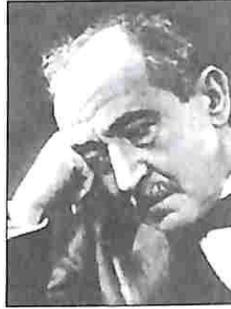
من ذلك كله يتضح مدى ما كانت عليه الحركة الأدبية والنقدية من ثراء وتفاعل ولأن صدى النقد كان ذائعاً، فقد انبرت الأقلام تكتب وتناقش وتحلل، وكان الجو الأدبي صحياً والحركة النقدية في أوجها.

فإذا عرفنا أن د. محمد صبري السربوني كان يتصدى لمثل هذا الكم من النقاد الراسخين والمتميزين فإننا ندرك مدى ثقته بذاته ورؤيته النقدية وثقافته الواسعة التي جعلت العقاد يشيد بها في بعض مقالاته.

ما بذله الطماوي من جهد كان - كما قال - لمسة وفاء وولاء لصديقه الدكتور محمد صبري، الذي لم ينتظر التكريم أو التقدير، ولعل كتابي صبري السربوني. ومحمد صبري، بداية على طريق خطه كاتبنا الطماوي لينصف هؤلاء الأعلام المجهولين في حياتنا الفكرية والثقافية، إنهم بحق عماد ثقافتنا المعاصرة نتنظر منه كتباً عن علي أدهم، ومحمد عبدالله عنان، وعبد الرحمن صدقي، وعبد الرحمن شكري، والشاعر عبداللطيف النشار، وعبد الحميد جودة السحار، والمؤرخ السكندري فهمي الجزايرلي، وخليل شيبوب، ومحمد مفيد الشوباشي، ود. فؤاد حسين.. والقائمة تطول. ■

## الباحث عن النصوص والأشعار:

وإذا كان الطماوي في هذا الكتاب يقدم لنا السربوني ناقداً وذواقة للفن والأدب فهو لم يغفل جانباً هاماً أشار إليه في كتابه السابق « صبري السربوني سيرة تاريخية وصورة حياة ». السربوني الباحث عن النصوص والأشعار، فقد وقع تحت يده نسخة لشعر البحري لم يسبق نشرها أهداها لحسن كامل الصيرفي عندما علم أنه يحقق ديوان البحري، ولم يكتف بذلك بل نجده جمع كل ما كتبه شوقي من شعر ونثر نشر في المجلات والجرائد منذ عام ١٨٨٨ إلى عام ١٩٢٢ م. فوقع على خمسة آلاف بيت لشوقي، بالإضافة إلى أعمال نثرية بلغت الستين في كتاب من جزأين أسماه « الشوقيات المجهولة » ف بجانب الرصد وشرح المعنى، صحح معلومات خاطئة وقرنها بالتحليل والنقد لروح العصر وسلط



أحمد شوقي

أضواء تاريخية واجتماعية وسياسية وثقافية، ويصف المؤلف كتاب الشوقيات المجهولة بأنه « عمل ساحر أنفق صاحبه خمسة عشر عاماً من عمره، ويطل علينا أسلوب السربوني النقدي من خلال رده على الانتقادات التي وجهت إلى شوقي نتيجة مواقفه السياسية كما تتوضح في إبداع شوقي الشعري، وأشار إلى أن شوقي كان يعرض بالإنجليز وأعاونهم ويذكر أسماءهم في شعره، وكشف السربوني - أيضاً - عن أن شوقي قام بترجمة شعر فرنسي عن أصل صيني، وشعر ياباني يتهم فيه قائله عن الأميرال كيمورا نقلته جريدة أوروبية، وقد انتقد السربوني شوقي: خاصة شعره في المديح فكانت معانيه مستهلكة قديمة لا جديد فيها، ولا تضيف للقصيد، بالإضافة إلى تفكك بعض قصائده، وعاب عليه أنه لم يتأثر بالبيئة الأندلسية حينما كان منفيًا بها، فلم توح له بأية خطرات شعرية، واتهمه بالجمود وعدم التطور وسوء اختيار لموضوعات قصائده، ولكنه حينما وزن بينه وبين حافظ انتصر لشوقي لعلو خياله.

ويخوض د. محمد صبري معركة أخرى أمام العقاد